

تعليمية البلاغة العربية تنظيراً و تطبيقاً

محمد الصغير أحمد
جامعة المدية

ملخص

تروم هذه المقالة الإجابة عن إشكالية تعليم البلاغة في مؤسساتنا التعليمية، لما تعانيه من عجز في التحصيل، و هذا بالوقوف على أهم المقاربات التعليمية خاصة منها المقاربة النصية التي تعزو وظيفة و أهمية البلاغة في ارتباطها بالسياق و النص الأدبي بمختلف تجلياته التداولية و الاستعملية. إن تحقيق البلاغة لوظيفتها الأساسية مرهون بتعلمها في ظل مبدأ الوظيفية، و ذلك حتى لا تتحول الموضوعات البلاغية المقررة في المرحلة التعليمية إلى مجرد قواعد جافة و مباحث نظرية و تعريفات منطقية لا علاقة لها بالاستعمالات اللغوية المختلفة التي ينبغي أن تكون تجسيدا للوضعيات اللغوية المختلفة التي يجابهها المتعلم، و تقتضي الإجابة عن هذا السؤال الإحاطة بجملة من القضايا المفصلية.

كلمات مفتاحية: البالغة، الوظيفة، النص، المتعلم، الأمثال الشعبية.

Résumé

Ce travail de recherche a pour objectif de délimiter le cadre conceptuel de la didactique de la rhétorique arabe dans notre institution éducative.

Il a été constaté des insuffisances et baisse de niveau dans l'acquisition de ce savoir.

Afin de pallier à cette problématique nous suggérons de remettre en question les programmes d'un point de vue fonctionnel; ce qui permettra aux apprenants de bien apprendre cette discipline selon leur besoin aux différentes situations de langage.

مقتضيات تعليمية البلاغ

إن تعليمية البلاغة تعنى في المقام الأول بإدراك مستويات التعبير و التأثير المختلفة باعتماد النصوص الأدبية الفنية في الدرس البلاغي و هذا من صلب المقاربة النصية، و إن اعتماد الأمثلة المبتورة عن سياقاتها تحول دون تحقيق هذه الوظيفة الأساسية لتعلم البلاغة، إذ إن إدراك أسباب الجمال في العبارات

و الكلام مرهون بمدى تحقيق هذا المبدأ ليست، فهي ليست كالنحو من حيث صلتها بالأساليب لأن النحو لا يشرك الأساليب في تحقيق غايته، أما البلاغة فقد تجاوزت هذا الحد إلى مجال الأسلوب ، و ذلك لما تقتضيه طبيعتها التعليمية، و إنه من البديهي أن " قواعد البلاغة وحدها لا تغني فتيلا في تكوين الذوق الأدبي وأن المعول عليه في ذلك هو قراءة النصوص الأدبية الرفيعة. إن إدراك المتعلم لقواعد البلاغة و أحكامها إدراكا واضحا دقيقا لا يمكن أن يكون إلا بعد" تمرسه بالأدب و نصوصه، إشباعا لذوقه الفني و حماسه البلاغية منها" (محمد صالح سمك ، فن تدريس اللغة العربية و انطباعاتها المسلكية و أنماطها العملية ، ص 673). و لذلك يتأكد بأن البلاغة ليست علما من العلوم التي يقصد بها حشو معلومات جديدة إلى الرصيد المعرفي للمتعلمين، لكنها فن أدبي يعتمد على الذوق الرفيع والحس الدقيق .

إنّ البلاغة فطرية يشيع استعمالها على السنة المتكلمين في حياتهم اليومية، إذ نسمع الكثير من أحاديث العامة وأمثالهم تحمل ألوانا بلاغية كالجناس في قولهم : ((اللي من نصيبك يصيبك)) والمجاز في قولهم: ((المكتوب في الجبين ما ينحوه اليدين))؛ والكناية في قولهم: ((القرش الأبيض لليوم الأسود)) ، وهذه الجملة من الألوان البلاغية لا ينبغي أن تغفل في دروس البلاغة، ولذلك ينبغي أن تفسر الموضوعات البلاغية المقررة في الواقع التعليمي على ضوء الغاية من تدريسها ، وذلك يجنبنا مشقة الإسراف والمبالغة في التقاسيم والتعريف التي أثبت الميدان التعليمي عدم جدواها من الناحية الفنية، ومثال ذلك التشبيه المقرر على السنة الأولى أدبي والثالثة أدبي يجب أن يفهم ،على اختلاف أنواعه، على أنه تشبيه في المقام الأول في مختلف الاستعمالات اللغوية، إذ ليس من باب أولى دراسة جميع مصطلحاته وأقسامه من مفرد وتمثيل، وغير تمثيل ومجمل ومفصل ومؤكد....، بل من باب أولى استخلاص الأوجه المختلفة له والتأثيرات التي تتولد عن كل استعمال عن طريق الموازنة بين مختلف الأمثلة ، وعليه فإذا أردنا توضيح الصورة الفنية للسجع عرضنا على المتعلمين نصا مسجوعا ، ثم نصا آخر يؤدي نفس معناه خاليا من السجع ، ومن خلال الموازنة بين النوعين يدرك المتعلم ما للسجع من أثر بلاغي، كما أننا لا نعني من الموازنة تلك الموازنات الجزئية بين الكلمة و الكلمة، و إنما نريد بها الموازنات العامة بين الأساليب المختلفة.

البلاغة و ثنائية الجملة /النص:

إنّ هذا التعامل مع دروس البلاغة يوحى بالخروج من الدائرة الضيقة التي كانت تحوم فيها البلاغة القديمة و هي دائرة اللفظ الكلمة و الجملة، إلى دائرة

أوسع و هي دائرة الأساليب البلاغية المتعددة، لأنّ البلاغة الحديثة أصبحت لا تسوغ الوقوف عند الجزئيات، و لأنها لا تقف عند عنصر واحد منفرد عن بقية العناصر، لكنها ترى فيها مجتمعة مؤتلفة سبيلا إلى إدراك الصورة البلاغية المتكاملة، و يترتب عن هذا المفهوم أن البلاغة ليست قضايا و أحكام و تعاريف و قواعد يلم بها المتعلم، و إنّما هي إدراك فني للأساليب المختلفة، من جمال الفكرة و جودة السبك و طلاوة الأسلوب، و هو إدراك يقوم على فهمها و تحليلها و تفصيل عناصرها و معرفة بواعثها و استشعارات تأثيرها و تذوق جمالها، ثم الحكم عليها قوة أو ضعفا بالوضوح أو الإبهام أو التعقيد، و يتناول ذلك الحكم صيغتها و تراكيبها من حيث جدّة هذه الصيغ و طرافتها أو شيوعها أو تكرارها ، أو استحسانها أو ابتذالها، كما يتناول التراكيب من حيث قوة سبكها و جودة صياغتها مراعاة مع مقتضيات قواعد النحوية للغة.

طبيعة تعليمية البلاغة:

إنّ البلاغة ليست من العلوم الآلية كالنحو والصرف بل هي من وسائل الذوق البلاغي الجمالي التي تعتمد على الإحساس لتربية الذوق، فهي بذلك فنّ لا علم، ولذلك يجب ربطها عند تعليمها بمختلف الأساليب الأكثر استعمالا و تداولاً، لأنّ هذه الأخيرة هي أساسها وقوامها ومعينها الذي تستقي منه، إذ من الخطأ الفاحش أن تعلم البلاغة بالاكْتفاء بذكر التعاريف والأحكام فقط ، مثلما هو جار في تعليم البلاغة اليوم، بل يجب أن يكون أساس تدريسها هو عرض الأساليب المختلفة التي تكتنف الاستعمال الشائع باستبطان ما فيها من النواحي الجمالية، وإنّ تعليم البلاغة في مدارسنا وفق هذه الصورة المنظورية على جملة من القواعد البحتة الخالية من كل جمال هو علة القصور الفني الذي يشوب ملكة الإبداع لدى متعلمينا في هذه المرحلة، بحيث أصبحوا يعمدون إلى حفظ التعاريف والمصطلحات، والتعليل لبعض الأحكام تعليلا منطقيا لا صلة له بالذوق الرفيع والتطبيق والتوظيف السليم، متجاهلان في ذلك روح البلاغة، حتى أصبحت دروس البلاغة تدرس كما قواعد النحو عارية من صورتها الوظيفية.

لذلك نقترح طريقة جديدة في تعليم البلاغة، لا نعتقد أنها جديدة في العالم، على المستوى النظري، على الأقل.

دعائمها

1- مبدأ الوظيفية : بحيث يتم الانطلاق من الاستعمالات اللغوية والأساليب الشائعة بمحاولة توظيفها بلاغيا وتشخيص شحنتها الجمالية وتحديد تأثيرها

البلاغي وفق مقتضيات الحال المختلفة التي يحددها السياق.

2- ثم يتم تقسيم هذه الأساليب البلاغية وفق طبيعتها، فتدرج تحت أبوابها وعلومها، أي ما هو من المعاني تحت باب علم المعاني، وما هو من البيان تحت باب علم البيان، وما هو من البديع تحت باب علم البديع.

3- ثم يتم استذكار بعض الأضراب والاصطلاحات اللغوية للمتعلم حتى تتكون عنده فكرة مرتبة عن البلاغة وعلومها وخلاصة هذه الطريقة المقترحة أنها "نقوم على استشعار مواطن الجمال في الأساليب المختلفة" (ص130 - الكتاب المدرسي)، ثم تحليل سر هذا الجمال، إذ يتم تقديم درس المجاز المرسل بتوظيف جملة من الأمثال الشعبية المتداولة حتى يتم تعرف المتعلم على حقيقة المجاز المرسل و بلاغيته انطلاقاً من واقعه اليومي، ويكون ذلك عوناً له على ممارسة الإبداع الحقيقي لما يقدم له من دروس البلاغة، و لناخذ مثلاً عن ذلك قول العامة: ((ذنوبك على رقبتك))، إذ لا يجب استثمار هذا المثل الذي يشتمل على مجاز مرسل في لفظ (رقبتك) و الذي علاقه الجزئية، و يكون ذلك دافع تشويق للمتعلم لمعرفة السر البلاغي من المجاز المرسل متركزاً على ما يحمله تراثه اللغوي (الكلامي) من كنوز بلاغية، و إننا لا نقصد من وراء هذا الكلام البحث عن كل الأمثال الشعبية المشتملة على المجاز المرسل، و إنما نقصد به محاولة توظيف ما يقع بين أيدينا في المناسبات التي تستدعي ذلك، و إن الأمر نفسه يتعلق ببقية فروع البلاغة من سجع و جناس و مقابلة و تورية و هلمّ جرا، فيكون ذلك عكس ما جرة عليه العادة في تدريس البلاغة على أنها قواعد ثابتة و التي تكون فيها العناية منصبّة على تحفيظ المصطلحات البلاغية، ثم يلمح من بعيد إلى بلاغة هذه المصطلحات البلاغية مسبقاً والمستقاة من أمثلة معزولة عن سياقاتها، في حين البلاغة ليست مقصورة على اللفظة المفردة، بل هي مختصة بالنظم ككل (عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص57، 58).

وظيفية الطريقة المقترحة

تهدف هذه الطريقة الجديدة لتعلم البلاغة إلى تبصير المتعلمين بلاغة الأساليب المختلفة وكيفية تأدية الفكرة الواحدة باختلاف السياقات وبطرائق متنوعة في كنف وضوح الدلالة بفضل الحقيقة والمجاز، كما تمر سهم أيضاً بالأسس والأصول التي تتأسس عليها بلاغة الكلام وجودة الأسلوب، إذ لا جدوى مثلاً من دراسة الكناية المقررة على السنة الثانية آداب بالوقوف على تحديد مفهومها وتقسيمها إلى أنواعها، بل الجدوى في إمكان تمييزها وتحديدتها في مختلف الاستعمالات المجازية، وتحديد موطنها وسر بلاغتها، ثم أخيراً تحديد

نوعها.

إن هذه الطريقة تخرج الدرس البلاغي من المناقشة النظرية لاستنباط التعريف وتحديد المصطلحات البلاغية التي تجدي نفعا في تكوين الذوق الأدبي والبلاغي عند المتعلم، ومن دائرة القواعد العلمية والمنهج العقلي الذي ترفضه طبيعة البلاغة الحديثة إلى دائرة تفي بتحقيق البلاغة الوظيفية، التي هي فطرية في استعمالاتها؛ وهذا ما تتجه إليه الدراسات الأدبية التدقيقية في اعتمادها على البلاغة، ولذا فإن مقتضى هذه الطريقة أن تكون البلاغة متميزة بطابعها التدقيقي والنقدي والتفاضلي، لأنّ عمادها في ذلك الحسّ اللغوي والجمالي السليم في إصدار الأحكام.

إنّ هذه الأحكام ليست عقلية يحكم عليها بالخطأ والصواب، لكنّها أحكام جمالية فنية يقضى عليها بالجمال والقبح، فالحكم العقليّ سبيله إلى الصواب مطابقتها للحقائق الثابتة والنتائج المؤيدة بالبراهين التي لا يختلف الناس بشأنها، أما الأحكام الفنية فإنها لا تستند إلى أحكام ثابتة من الأسس والحقائق المطردة، بل يعتمد فيها إلى الحس والذوق، فالناس على سجيّتهم مختلفة أذواقهم، ولذا فإنّ الحكم الفني في ذلك أمر صعب المنال.

إنّ الوسيلة التي يمكن اعتمادها لتذليل هذه العوائق التفاضلية بين الأذواق المختلفة لإصدار الأحكام تستدعي أن ننظر إلى الأثر الأسلوبي في اقترانه ببنى جنسه، فتكشف ما بينهما من وجوه الاتفاق والاختلاف، إذ ذلك يساعدنا على تقدير القيمة الفنية الجمالية لكل منهما، ولذا يجب على معلم البلاغة أن يتفطن إلى أنّها سجية في استعمالات المتعلمين، لأنّها استعمالات مشحونة في الغالب بضروب التشبيه والاستعارة والكنابة وزاخرة بألوان السجع والجناس والمقابلة والقصر والتقديم والتأخير، وما إلى ذلك من الأدوات البلاغية التي ترد في أساليبهم المختلفة، والتي لا ينبغي تجاهيها في دروس البلاغة، وهذا يدلّ على أن البلاغة ماهي إلا ألوان من الأدوات المختلفة والضروب التعبيرية المتعددة، إذ ليس البلاغة علما يستهدف بالاستنباط وتقرير القواعد، ولذا فإن من واجب المعلم أن يستفيد ممّا في اللغة العامية من الاستعمالات البلاغية ليجعلها تأسيساً لنظائرها الأخرى في اللغة، فيها يستطيع تذليل الصعوبات التي تعترض سبيل المتعلم وتيسر له إدراك هذه الظواهر البلاغية، ويكون ذلك باعثاً على إثارة انتباههم إلى أن البلاغة ليست أحكاماً مجردة في أذهان المتكلمين، مثلما تهدف الطريقة التعليمية المتبعة في الكتاب المدرسي إلى ذلك، وإنّما هي استعمالات لغوية متكررة في خطابات المتعلمين، ومن بين هذه الاستعمالات البلاغية:

((الي من نصيبك يصيبك)) ← ينبغي استثماره في موضوع الجنس.

((مات من الجوع)) ← ينبغي استثماره في موضوع الكناية.
 ((غرقان في الكتب)) ← ينبغي استثماره في موضوع الاستعارة.
 ((بيته جنة)) ← ينبغي استثماره في موضوع التشبيه -البليغ-
 تبقى أنماط هذه الأمثلة غير محدّدة في مختلف الاستعمالات، لذا ينبغي التركيز عليها حتى يستشف المتعلم ما في أساليبه اليومية على اختلافها من بلاغة وبراعة التصوير، كما تبقى تلك الأساليب المأثورة من تراثنا ذخرا ومنوالا أعلى يحتذى به، دون إغفال ما يتضمنه الاستعمال من ضروب البلاغة.

استثمار الطريقة التعليمية

إنّ هذا التعامل الوظيفي المقترح للبلاغة يجعلها تتجاوز المرحلة التي فيها "أصببت بالانحسار والتراجع تحت تأثير النزعة التعليمية التأديبية، فتحوّلت البلاغة إلى قواعد صارمة، وتاه المؤدّبون والمتأدّبون في متاهات سميت بالفروع والعلوم" (لجنة من المؤلفون التربويون ، أهداف و طرق تدريس اللغة العربية ، ص 73) .

وهذا ما نبه إليه ابن خلدون في قوله " [...] و سار الاشتغال بها - البلاغة - لغوا معه ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها و كثرة فروعها [...] فهو نوع من اللغو و هي أيضا مضرّة بالمتعلمين على الإطلاق ، لأنّ المتعلمين اهتمامهم بوسائلها ، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل، فمتى يظفرون بالمقاصد ؟ فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها، و ينبهوا المتعلم على الغرض منها و يقفوا عنده " (ابن خلدون ، المقدمة ، ص 573) .

إنّ هذه الالتفاتة التعليمية لم تراعى في تدريس البلاغة في مؤسساتنا التعليمية، مما زادها امتدادا و عمقا للطريقة المنتقاة من قبل ابن خلدون، لأنّ تعليم البلاغة بهذا المنظور المكرس بعيد عن بلاغة الرواد من البلاغيين العرب، و على رأسهم عبد القاهر الجرجاني ، لذا جاءت النتائج التعليمية للبلاغة في مدارسنا عقيمة غير ناجعة، لأنّ " المفهوم العلمي الحديث للبلاغة مخالف لذلك، إذ لم يعد الهدف الأول للبلاغة العلمية - الوظيفية - هو إنتاج النصوص بل تحليلها " (هنريش بليث : البلاغة و الأسلوبية ، ص 15 . 16)، و يعني ذلك أنّ البلاغة الحديثة الوظيفية لا تهتم بالأقيسة والمعايير البلاغية المحدّدة للكلام، بل تعمل على وصف الكلام البليغ عن غيره وفق منظور فني ملازم كل كلام، وهنا لا نعني بالكلام مطلق الكلام بل الأدبي، ولذا فإنّ عملية اختزال الظواهر الجمالية البلاغية إلى قواعد صارمة تعنى بالتبويب والتصنيف زاد

المتعلمين نفورا من المادة وعزوفا عن تقبلها.

خلاصة

إنّ انتقلنا إلى الواقع يكشف لنا عن ذلك، بحيث إنّ المتعلمين في هذه المرحلة يبدون اهتماما كبيرا باستظهار القاعدة البلاغية وهم غير قادرين على الوقوف على الظاهرة البلاغية المرتبطة بها وتوظيفها في تحليل أيّ نصّ أدبي ومقاربة جوانبه الفنية الإبداعية، كما أنهم أثناء الامتحانات يجيبون أكثر عن الأسئلة القاعدية التي تخاطب الذاكرة ولا يستطيعون تحديد الظاهرة البلاغية داخل النصّ الأدبي.

و تحقيقا للمقاربة النصية ينبغي أن تخرج تعليمية البلاغة من دائرتها الضيقة التي كانت تدور في فلكها، و ذلك بمفهوم البلاغة القديمة المتمثلة في دائرة اللفظ و الكلمة و الجملة إلى دائرة النص و الصورة فهذه الطريقة هي المسيرة لطبيعة البلاغة و تطورها في العصر الحديث، و لأن البلاغة الحديثة أثبتت عدم قابليتها الوقوف على الجزئيات، لذا كان لزاما على معلم البلاغة أن ينتهج طرائق الموازنة في النصوص الحاملة للألوان البلاغية المراد تعليمها، ففي ضوء هذه الموازنات يتجلى للمتعلم تأثير اللون البلاغي في جلاء الصورة و وضوح المعنى.

قائمة المراجع

- 1 - محمد صالح سمك ، فن تدريس اللغة العربية و انطباعاتها المسلكية و أنماطها العملية .
- 2 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، بحث بتقديم علي أبو زقية ، سلسلة الأنيس الأدبية، تحقيق القول في البلاغة والفصاحة.
- 3 - لجنة من المؤلفين التربويين، أهداف و طرق تدريس اللغة العربية ، ط 1 ، المغرب، 1962.
- 4 - ابن خلدون ، المقدمة ، دار القلم ، لبنان .
- 5 - هنريش بليث : البلاغة و الأسلوبية ، ترجمة و تقديم و تعليق : محمد العمري، المغرب 1989 .
- 6 - منهاج اللغة العربية و آدابها في التعليم الثانوي، وزارة التربية الوطنية .
- 7 - الكتاب المدرسي - المختار في القواعد و البلاغة و العروض- وزارة التربية الوطنية .